

أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي (دراسة تحليلية مقارنة)

إعداد:

د. غصنه حمد متعب العامري

كبيرة الوعاظ بالهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف

الإمارات العربية المتحدة

qe9na.alamri@gmail.com

الملخص:

تعاقبت الحضارات على مر العصور، واختلفت نظرة كل حضارة إلى أخلاق القوة، ففي الحضارة الإسلامية جاء القرآن الكريم بآيات كثيرة تشجع على إعداد العدة والقوة اللازمة، لنصرة الضعيف، ومنع الظالم، ونشر العدل بين الناس، وكذلك السنة النبوية، وعلى هذا النهج سار الصحابة ومن بعدهم، أما الفلسفة اليونانية فقد اعتمدت على العقل في تفسيرها لأخلاق القوة، فنتج عنه العنصرية، والظلم، والقهر، فالغاية تبرر كل وسيلة ممكنة، وكذلك الحضارة الغربية الحديثة ليست ببعيدة عن الفلسفة اليونانية، بل أخذت منها الكثير، بالإضافة إلى ادعاءاتها المستمرة برعاية حقوق الإنسان، وبنصرة المظلوم، والمساواة بين الناس، ومن خلال هذا البحث المتواضع عمدت الباحثة إلى دراسة مفهوم أخلاق القوة عند الإسلام، وفي الفكر الغربي، من خلال استقراء النصوص والأدلة والأقوال والآراء، ومن ثم تحليلها، وإظهار ملامح أخلاق القوة عند كل جانب، والمقارنة فيما بينهم، ووصولاً إلى نتائج منها، التزام المسلمين بما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى، وفي أحاديث النبي الله عليه وسلم في تفسير معنى القوة، فقد نهى الإسلام عن التمثيل بالقتلى في المعركة، كما نهى عن قتل الشيخ المسن، أو الطفل أو المرأة، هذا على سبيل المثال لا الحصر. بينما أخلاق القوة لدى الغرب لا ترعى في إنسان إلاً ولا ذمة، فقد عُرف عنها عبر التاريخ المجازر الكثيرة ضد الإنسانية، والتي لم تفرق بين كبير وصغير. وذلك لأن مشارب الفلاسفة في تناول قضايا أخلاق القوة مختلفة، مما يعني أن هذا التضارب الظاهر غير المصدر الأخلاقي عند الفلاسفة، ذلك أن العقل كان منذ الفلسفة اليونانية وحتى الفلسفة الحديثة هو المصدر الذي تستمد منه الأخلاق.

الكلمات المفتاحية: أخلاق القوة – الإسلام – الفلسفة اليونانية – الحضارة الغربية – حقوق الإنسان.

Abstract:

Civilizations have succeeded throughout the ages, and each civilization's view of the ethics of power differed. In the Islamic

civilization, the Qur'an came with many verses that encourage the preparation of equipment and the necessary strength, to support the weak, prevent the oppressor, and spread justice among people, as well as the Prophetic Sunnah, and on this approach the companions and those after them walked As for Greek philosophy, it relied on reason in its interpretation of the ethics of power, which resulted in racism, injustice, and oppression. With the support of the oppressed and equality between people, and through this modest research, the researcher proceeded to study the concept of the ethics of power in Islam, and in Western thought, by extrapolating texts, evidence, sayings and opinions, and then analyzing them, and showing the features of the ethics of power on each side, and comparing between them, And to reach results, including Muslims' adherence to what is mentioned in the Book of God, the Blessed and Exalted, and in the hadiths of the Prophet, may God bless him and grant him peace, explaining the meaning of strength. Child or woman, to name a few. While the morality of power in the West does not nurture a human being without a dhimma, it has been known throughout history for the many massacres against humanity, which did not differentiate between the big and the small. This is because the approaches of philosophers in dealing with issues of the ethics of power are different, which means that this apparent contradiction has changed the moral source for the philosophers, because the mind has been from Greek philosophy until modern philosophy is the source from which ethics are derived.

Keywords: power ethics - Islam - Greek philosophy - Western civilization - human rights.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين، وبعد... بعث الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليتم مكارم الأخلاق، ولينصر الضعيف، ويمنع ظلم القوي، فانتشر العدل والمواخاة بين الناس، وتشكّلت الحضارة الإسلامية على مبادئ عظيمة، كالتعاضد والتسامح، والعفو عند المقدرة، ونصرة الضعيف، ومنع الظلم ممن كان، وقد حثّ الله تعالى على إعداد العدة والقوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. [الأنفال:60]. فالقوة هنا مطلوبة لنشر العدل ومنع الظلم بين الناس، من تفريق بينهم على أساس الدين أو العرق أو النسب، وسار على هذا النهج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ومن بعدهم الدول الإسلامية المتعاقبة، حتى وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوجها، إلى ما قبل سقوط الدولة العثمانية، واستعمار البلاد الإسلامية من قبل الغرب، وانتشار الظلم والجهل بين المسلمين.

وعلى النقيض من الطرف الآخر، بدأت الحضارة الغربية تتشكّل على أنقاض الحضارة الإسلامية، فقتلت المسلمين ودمّرت بلادهم واستعمرتها لتبقى أطول فترة ممكنة تحت حكمهم، أما بلادهم فقد بنوها على أسس الحداثة والتنوير، وعلى مبادئ كتمجيد الصحة والجاه والقوة، وإضفاء الهيبة على القادة والأبطال، وكذلك مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة، فله أن يعتدي أو يقتل في سبيل وصوله إلى غايته، طالما أنه يملك القوة لذلك، كذلك يمكنه أن يستخدم المكر والخداع والغدر في سبيل وصوله إلى غايته. ولا يخفى مدى تأثر الحضارة الغربية بالفلسفات اليونانية.

ثم إن الناظر في التاريخ لا يخفى عليه عدد الحروب التي خاضتها الدول الغربية ضد بعضها البعض، وعدد القتلى والمجروحين، وأصحاب العاهات الدائمة، كل ذلك في سبيل غايات شخصية، ولأنها تملك القوة اللازمة.

كما لا يخفى أيضا اتهامهم الدائم للإسلام والمسلمين بالإرهاب، كي يجدوا ذريعة لاحتلال أراضيهم، ونهب ثرواتهم، فقط لأنهم يملكون القوة اللازمة، والذي في مقابلهم ضعيف لا يملك أي شيء.

وقد جاء هذا البحث للوقوف على أخلاق القوة عند المسلمين، من خلال استقراء الآيات الكريمة، ومن خلال الأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خلال أفعالهم في الحروب والمعارك، وكيفية تعاملهم مع من يخالفهم في الدين والمعتقد وتحليلها، مع المقارنة بالفلسفات اليونانية، والحضارة الغربية القائمة على المصلحة، والاستعلاء، واستخدام لغة التهديد والوعيد.

مشكلة الدراسة:

تتغنى الدول الغربية بحضارتها، وبالقوة التي وصلت إليها، وبأنها راعية حقوق الإنسان، وصاحبة العدل والإحسان، ومنع الظلم، مع محاولتها دائما تشويه حضارة المسلمين، ووصفهم بالإرهاب والقتل، وأن دينهم انتشر بحد السيف ومن منطق القوة والظلم والإكراه، حتى أصبح لدى الكثير من المسلمين القناعة بذلك، وجاء هذا البحث لاستقراء النصوص الإسلامية، والوقائع التاريخية، والفلسفات الغربية، وتحليلها، ومقارنتها مع بعضها البعض.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الأهداف الآتية:

- 1- توضيح مفهوم القوة في الإسلام.
- 2- معرفة معنى القوة في الفلسفة اليونانية.
- 3- تبين المفهوم الغربي للقوة.

أهمية الدراسة:

- 1- تقديم دراسة تحليلية لمفهوم القوة في الإسلام.
- 2- الوقوف على معنى القوة والسلطة في الفلسفة اليونانية.
- 3- محاولة فهم مدى تأثير مفهوم القوة عند الغرب بالفلسفة اليونانية.

منهج الدراسة:

تنتهج الباحثة المنهج الاستقرائي، وذلك بجمع النصوص والأقوال من مصادرها الأصلية، كالأيات والأحاديث الشريفة والمراجع الإسلامية ذات الصلة، كما تقوم الباحثة بقراءة وجمع المعلومات من المصادر والمراجع المتعلقة بالفلسفة اليونانية، وبمفاهيم الغرب لمنطق القوة، والمنهج التحليلي بتحليل النصوص، ونقد الآراء والأفكار، وكذلك تستخدم المنهج المقارن من خلال المقارنة بين أخلاق القوة عند المسلمين وأخلاق القوة عند الغرب.

تمهيد:

شتان ما بين أخلاق القوة عند المسلمين، وأخلاق القوة عند الغرب، فأخلاق القوة عند المسلمين تقوم على التسامح والعفو عند المقدرة، حتى في أثناء الحروب والمعارك، إذ يحرم الإسلام قتل العابد في صومعته، أو قتل النساء والأطفال والمرضى، وكان المسلمون يحملون مشاعل النور والعلم والدين الخالص لله ﷻ، ويعمرون البلاد التي يدخلونها، وسرعان ما تنهض وتتقدم، ولا غرو، فهي أخلاق ربانية المصدر. بينما أخلاق القوة عند الغرب تقوم على التعصب الأعمى، والأنانية وكراهية الآخر، لذلك، فالقتل والتخريب والدمار حليف معاركهم أينما ساروا، ومهما كان عدوهم.

وستقسم الباحثة هذا البحث إلى مبحثين اثنين، فالمبحث الأول عن أخلاق القوة في المفهوم الإسلامي، وأمّا المبحث الثاني فعن أخلاق القوة في المفهوم الغربي، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: أخلاق القوة في المفهوم الإسلامي

يدعو الإسلام إلى الرفق واللين في كل شيء، كما يدعو إلى حسن الخلق، والمعاملة الحسنة مع كل الناس، بل مع الحيوان والنبات والجماد أيضاً، حتى يظهر المسلم أمام الناس وكأنه ضعيف، وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤلات التالية: هل الإسلام ضد القوة؟ وهل هو ضد اللذة؟ أو المنفعة؟ أو العنصرية؟، وسوف تجيب الباحثة عن الأسئلة السابقة من خلال المطالب الثلاثة التالية.

المطلب الأول: هل الإسلام ضد القوة؟

الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى القوة ويشجع عليها، ويقدر الأقوياء، فالإنسان القوي ينفع نفسه ومجتمعه ووطنه، ويكره الإسلام الضعف والتخاذل، والاعتماد على الغير، فالضعيف عالة على أهله ومجتمعه ووطنه كله. لذلك حث الإسلام على التحلي بكل أنواع القوة الممكنة، ومنها القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية.

إن الدين الإسلامي هو دين القوة، فقد قال الله ﷻ: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» [الأنفال:60].

فالآية الكريمة السابقة تشمل كل أنواع القوة، وهي القوة العسكرية والمادية والجسدية والرياضية، إلى جانب القوة المعنوية والنفسية، فهي تلفت النظر مباشرة إلى جانب من جوانب القوة النفسية، وهو الانتصار على الشح والبخل الذي يلزم النفس البشرية، والدعوة للتغلب عليه بالإنفاق في سبيل الله وتعويد النفس على البذل والعطاء¹.

ونرى أيضاً أن النبي ﷺ يمتدح المؤمن القوي، فعن أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ألقوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»². ومع حب الإسلام للقوة، وحثه الشديد عليها، إلا أن المؤمن فيه خير كثير في نظر الإسلام، حتى ولو كان ضعيفاً، ففي الحين الذي تريد الفلسفة الغربية التخلص من الضعفاء والفقراء، وإبادتهم، وقد فعل الغربيون ذلك في إفريقية، وفي البلاد العربية والإسلامية، فإن الإسلام يعد الحياة لا تخلو من الضعفاء والفقراء، والضعف وال فقر لا يلغيان إنسانية الإنسان وكرامته، بل فيهما خير وقد يكون خيراً عظيماً.

فالنبي ﷺ يقول: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»³.

¹ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، (مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية - المجلد 27 - العدد الثالث- 2011م)، ص335.

² مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ج4، ص2052، رقم2664.

³ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة، باب فضل الضعفاء والخاملين، ج4، ص2924، رقم2622.

وقد علم الرسول ﷺ أصحابه كيف يحترمون الضعفاء والفقراء حين سأل ذات يوم عن امرأة سوداء فقيرة كانت تقم المسجد، فقالوا: ماتت، فقال: «أفلا كنتم أذنتموني؟» فكانهم صغروا أمرها، فقال: «دلوني على قبرها»، فدلوه فخرج فصلى عليها⁴.

فمع احترام الإسلام للقوة، وتقديره للأقوياء، وحثه لأتباعه على التسلح بالقوة في كل المجالات إلا أنه يحترم الضعفاء ويقدرهم أيضاً، بل يحث على إعانة الضعفاء والرحمة بهم، حتى قيل: "الضعيف أمير الركب". أي إذا سار قوم في موكب أو رحلة وفيهم رجل ضعيف فليسيروا على سيره، وليقفوا على وقوفه، وليستريحوا على راحته وكأنه أمير عليهم.

فالقوة في الإسلام مكبوحه بالرحمة والإنصاف والعدل، مكبوحه بالأمانة "القوي الأمين"، فقد قال الله ﷻ: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [القصص: 26]، والفرق بين المنظور الإسلامي للقوة والمنظور الفلسفي الغربي هو أن القوة في الإسلام للردع، لردع الشر والأشرار، ولردع الباطل، أما في الفلسفة الغربية فالقوة هي الفرعنة والخطرسة والتأله، وهي ليست لخدمة الإنسانية، وإنما لخدمة لون من ألوان الإنسان هو الإنسان الأبيض. إن القوة في الإسلام نوعان: قوة مادية عسكرية، وقوة معنوية هي الأمانة، والثانية هي الحاكمة على الأولى والموجهة لها، تحفظها من الطغيان، وتمنعها من الظلم والجبروت، وتحصنها بداعية الخوف والخشية من الله ﷻ، في حين القوة الغربية مدفوعة بدافع الغرور والأنانية والتمرد والتفرعن⁵.

فالإسلام، في رأي الباحثة، يقدر القوة العاقلة التي تهدف إلى ردع العدو، والأخذ على يد الظالم وتخويفه ليرجع إلى رشده، ويعود إلى حظيرة المجتمع ليكون مواطناً صالحاً. كما يهدف إلى تأمين الدعوة الإسلامية بالوسائل الممكنة ومنها القوة، ولذلك كان الجيش الإسلامي قبل أن يدخل بلداً ما يخيّر أهله بين اختيارات ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب حتى يفصل الله بينهم.

⁴ البخاري، الصحيح، كتاب المساجد، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيذان، ج1، ص175، رقم446؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، ج2، ص659، رقم956.

⁵ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص336.

ولذلك كان مجموع قتلى العدو في غزوات النبي ﷺ قرابة ثلاثمائة وخمسين رجلاً فقط، وهو ما يؤكد أن المسلمين في معاركهم لم يكن هدفهم القتل، وإنما نشر دين الله ﷻ.

المطلب الثاني: هل الإسلام ضد اللذة والمنفعة؟

لقد أباح الإسلام للإنسان الاستمتاع بالطيبات من الحياة الدنيا، قال ﷻ: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفِّصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [الأعراف: 32]، كما حرم الله ﷻ عليه الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن، قال الله ﷻ: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف: 33]، كما أمر بالزينة والاستمتاع بالأكل والشرب دون إسراف، فقال ﷻ: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف: 31]، كما أباح الإسلام الاستمتاع المشروع بين الزوجين، ولكنه ضبط اللذة بمعيار التوسط لا بمعيار البهيمية، ولفت نظر الإنسان إلى أصناف سامية جداً من اللذة، فقال ﷻ: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [السجدة: 17]، وجاء في الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)»⁶، إن الإسلام لا يحارب اللذة، وإنما يهذبها ويخلصها من الانحراف والشذوذ، ويدعو إلى التوسط والاعتدال، والبعد عن الإسراف والتبذير⁷.

لقد اعترف الإسلام بالشهوة الإنسانية، سواء شهوة البطن أو الفرج، ولكنه هذبها بتعاليم الشرع الحنيف، فحث المسلمين على التمتع بالطيبات، ولكن دون إسراف أو تبذير، ودعاه إلى التوسط والاعتدال، ففي مجال شهوة الفرج فتح الله ﷻ مجال الحلال واسعاً، فجعل الزواج مثلي

⁶ البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ج3، ص1185، رقم3072؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها، بدون باب، ج4، ص2174، رقم2-(2824).

⁷ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة). ص337.

وثلاث ورباع، وأباح ما ملكت يمين المسلم. وفي الطعام والشراب كذلك، أباح التمتع بها ولكن باعتدال وتوسط، بلا بخل ولا إسراف.

فقد حرم الإسلام الرهبانية، ونهى عن التشدد والتنطع في العبادة فقال رسول الله ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام»⁸. كما نهى الرسول ﷺ أصحابه الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم في العبادة والزهد، فعن أنس رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁹.

وحيثما كانت المنفعة والمصلحة فثم شرع الله، ولكنه يمزج هذه الدعوة بالإيثار والتفاني، ويحذر من الأثرة والأنانية قال الله ﷻ: (ويؤثرون ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر:9]، كما أن المصالح في الإسلام مترابطة بحسب الأهمية: الدين فالنفس فالعقل فالعرض فالمال، كذلك فإن مصلحة المجموع مقدمة على المصلحة الفردية، لكن الفارق الأهم بين الإسلام والفلسفة الغربية في هذه المسألة هو أن المصلحة والمنفعة في دين الله ﷻ ليست قاصرة فقط على المنظور الدنيوي البحت، بل إذا كان (ألمال وألبئون زينة الحياة الدنيا)، فإنه (وأبوابها الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً) [الكهف: 46]، فالأصل في دعوة الإسلام أنها دعوة إلى الآخرة قال الله ﷻ: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة)، ولكن الإنسان في طريقه إلى الآخرة يحتاج إلى البلاغ، ويحتاج إلى ما يتزود به دون عنق أو مشقة، ولذلك يأتي البيان القرآني مساراً لتطمين الإنسان إلى ضرورة ذلك وأهميته

⁸ ذكره ابن رجب وقال عنه بأنه من مراسيل طاووس. زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، فتح الباري، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، (الدمام بالسعودية: دار ابن الجوزي، ط2، 1422هـ)، ج1، ص102.

⁹ أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج7، ص2، رقم 5063؛ ومسلم، الصحيح، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه، ج4، ص129، رقم 1401.

فيقول ﴿١﴾: (وَلَا تَتَسَوَّأْ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: 77]¹⁰.

وهنا ترى الباحثة أن الإسلام قد وازن بين الدين والدنيا، فقد أمر الإنسان بالتمتع
بالطيبات في قصد واعتدال، ودون إسراف أو تبذير. كما اعترف الإسلام بالشهوات، ولكنه هذبها
وفتح لها طريق الحلال على مصراعيه، وأمر الإنسان أن يوازن بين العمل الذي يخدم الدنيا
ويطورها، ويحقق خلافة الله ﴿١﴾ في الأرض، وبين العمل للأخرة ممثلاً في أعمال الطاعة
والعبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج... إلخ.

المطلب الثالث: هل الإسلام ضد العنصرية؟

نعم إن الإسلام ضد العنصرية مصطلحاً ومفهوماً، لأن المصطلح نشأ في ظروف القتل والإبادة
للآخرين، فالعنصرية جاءت من الزعم بأفضلية عنصر ما من البشر على عنصر آخر،
والمقصود بالعنصر هنا الدم والتكوين البشري، فاليهود يعدون أنفسهم مخلوقين من عنصر بشري
مميز، ليكونوا سادة على الناس، "تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن
الابن جزء من والده، ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة إلى باقي الأرواح، لأن
الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات"¹¹، والبراهمة قسموا الناس
إلى طبقات أسماها طبقة البراهمة، وهم رجال الدين فقد خُلقوا من رأس الإله براهما، أما بقية
الناس فقد خُلقوا من مناكب براهما أو من ركبتيه أو من قدميه، وكل طبقة مخلوقة لخدمة الطبقة
التي تعلوها¹²، وأما اليونان فينظرون إلى بقية الشعوب نظرة دونية، وكذلك رأينا كيف أن
الألماني بنظر الفلسفة النازية أرقى من سائر الشعوب، لأن دماغه من أنقى الدماء، وهكذا انتشرت
فكرة العنصرية.

¹⁰ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص337، 338.

¹¹ محمد عبد الله الشرقاوي، الكنز المرصود في فضائح التلمود، (القاهرة: مكتبة الوعي الإسلامي، د.ط، 1410هـ/1990م)، ص190.

¹² محمد أبو زهرة، مقارنة الأديان، الديانات القديمة، ص40.

واليوم فإن المفاهيم المطروحة في العالم المعاصر مثل حقوق الإنسان، والديمقراطية والحرية هي مفاهيم عنصرية على مستوى التطبيق الواقعي، ولذلك فالعراق يفتش عشرات المرات بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل، في حين إسرائيل تفخر أمام العالم بترسانتها النووية، وسلمان رشدي يدافع عنه الغرب بكل وسائله الإعلامية لأنه يهاجم الإسلام، وروجيه غارودي يحاكم وتُصادر كتبه لأنه قال كلمة لم يرض عنها اليهود، والمرأة لها أن تلبس ما تشاء، ولكن إذا كان ذلك باسم الإسلام وتحت مبدئه وشعاره فليخلع الحجاب في أول دولة ترفع شعار الحرية والديمقراطية، ولتداس هذه المفاهيم ما دامت تستند إلى مرجعية إسلامية، ولذلك يسخر مراد هوفمان من حقوق الإنسان حين يقول: إن حقوق الإنسان والديمقراطية لها عيون زرقاء وشعر أشقر، ويعني بذلك أنها تطبق فقط حين تكون لصالح الأوربيين¹³.

بينما نجد الإسلام يحارب هذا المفهوم العنصري، ويطبق مبدأ المساواة، ويخاطب الناس جميعاً دون تمييز، فقد قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات:13]، والتكريم والتفضيل للبشر جميعاً على اختلاف أشكالهم وألوانهم دون تحيز لجنس أو لون، ولذلك قال ﷻ: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء:70]، ومعيار التفاضل في الإسلام ليس القوة ولا اللون أو الجنس وإنما هو التقوى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات:13]، وقال الرسول ﷺ في حجة الوداع مؤكداً ومبلغاً للناس جميعاً في وصية عالمية: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ،

¹³ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص338، 339.

هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ»¹⁴، والإسلام إذ يطرح مبدأ المساواة يطرح إلى جواره مبدأ آخر لإثارة التنافس على الفضائل بين الناس والأمم والشعوب، وهذا المبدأ هو مبدأ الخيرية، قال ﴿١﴾: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران:110]، ومبدأ الخيرية يختلف عن مبدأ العنصرية في أن هذا الثاني يقوم على أساس أفضلية العنصر والدم والتركيب الجبلي، بينما في مبدأ الخيرية يكون المعيار هو العمل وال عمران الحضاري، والأداء الإنساني، والأمة الإسلامية هي خير الأمم، ولكن ذلك مشروط بتعمير الأرض بمنهج الله ﴿١﴾، والإيمان بالله ﴿١﴾، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وختم الآية يشير إلى أن الأمر ليس خاصاً بالمسلمين، بل أهل الكتاب أيضاً، لو فعلوا ذلك لكانوا كذلك، (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران:110]، وبهذا يظهر أن هذه الخيرية المنسوبة للأمة الإسلامية ليست مطلقة بل مشروطة بالعمل الصالح، فإذا تقاعست الأمة عن مهمتها التي كلفت بها تكون شر الأمم وتُستبدل، قال ﴿١﴾: (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [محمد: 38]، إن التفاضل في ميزان الإسلام لا يكون إلا بالعمل الصالح، وكل عمل يسهم في بناء الحضارة

ورقي الإنسانية فهو من العمل الصالح الذي يكون سبباً للرفعة والعزة عند الله ﴿١﴾¹⁵.

● أوامر الإسلام ونواهيها باستخدام القوة

الإسلام يدعو أتباعه إلى التعقل والتريث في استخدام القوة، فيعلمهم متى يستخدمون القوة، ويكونوا أشداء أقوىاء على العدو، ومتى يكونوا رفقاء يرشدون استخدامهم للقوة.

وسوف أبين ذلك من خلال مواقف الإسلام وحثه لأتباعه في المواقف التالية:

- الدعوة إلى الإسلام دون إكراه¹⁶:

¹⁴ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ/2003م)، ج7، ص132، رقم4774.

¹⁵ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص339، 340.

¹⁶ محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، تعليق وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 1998)، ص265، 268.

- عدم إثارة الكراهية:

قال الله ﴿٤١﴾: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 8].

- ترك التسلط وإثارة القلاقل:

قال الله ﴿٤١﴾: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: 83].

- عدم المساس بأمن المحايدين:

قال الله ﴿٤١﴾: (فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) [النساء: 90].

- حسن الجوار، العدالة، البر:

قال الله ﴿٤١﴾: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [المتحنة: 847].

- عدم المبادرة باستخدام السلاح:

قال الله ﴿٤١﴾: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۗ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [المائدة: 2].

- الامتناع عن القتال في الأشهر الحرم:

قال الله ﴿٤١﴾: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ۗ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۗ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۗ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [الأنعام: 36].

- الحرب المشروع في الإسلام:

ولها حالتان:

1. الدفاع عن النفس: قال الله ﷻ: (فَإِنْ لَّمْ يَغْتَزِلُوكُمْ وَيُلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ^٤ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) [النساء:47].
2. مساعدة المستضعفين المحرومين من وسائل الدفاع: قال الله ﷻ: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)، [النساء:75].

- قتال المقاتلين دون غيرهم:

- قال الله ﷻ: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا^٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة:190].

- عدم الفرار من ملاقات المعتدين:

- قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ) [الأنفال:115].

- الثبات والاتحاد:

- قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ^٦ وَاصْبِرُوا^٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:45، 46].

- الصبر والأمل:

- قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، [آل عمران:200]. (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران:200].

- عدم الخوف من الموت:

- قال الله ﷻ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ^٨ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ^٩ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، [آل عمران:156]. (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ

عَلَيْهِمُ الْقِتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۗ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ [آل عمران: 154].

- الحذر من مكائد الكفار وإغوائهم:

قال الله ﷻ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۗ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

- لا استسلام:

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35]. وإنما قبول السلام، وعدم ملاحقة العدو المنسحب: قال الله ﷻ: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۗ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 192، 193].

- الوفاء بالمعاهدات المبرمة:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۗ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

- عدم مواجهة الخيانة بمثلها:

قال الله ﷻ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، [الأنفال: 58].

- الوفاء بالشروط وإن كانت مجحفة، وعدم العدوان بدافع الطمع:

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ عُزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۗ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۗ وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 91، 92].

- الإخوة الإنسانية رباط مقدس فوق التعصب لجنس أو نوع:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَقِيبًا﴾

[النساء: 1]. وقال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13].

- معيار الثواب والتفاضل بين البشر:

قال الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13].

وهكذا جاءت تعاليم الإسلام لتحث على القوة، والاستعداد لملاقاة الأعداء، بالقوة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية... الخ. ومع ذلك طالبتهم بعدم الاعتداء أو ترويع الأمنين، أي أن الإسلام يدعو إلى القوة العاقلة، التي تقاوم المعتدين فقط، وتحترم المعاهدات والاتفاقيات، وترحم الضعيف، وتوقر الكبير، وتدعو إلى السلام، ولكن سلام الأقوياء الأعداء لا سلام الضعفاء الأذلاء المستسلمين.

المبحث الثاني: أخلاق القوة في المفهوم الغربي

يتعامل الغرب عبر تاريخه مع الشعوب بمنطق القوة والتفوق الأعمى، فهو يدين بفلسفات بشرية قدرة توجهه إلى الظلم والعدوان، وخدمة مصالحه مهما كانت الوسيلة المؤدي إليها، ولو على دماء الأبرياء، وقتل الشعوب الآمنة والعدوان عليها، ومنها: ثعلبية مكيافللي، وذنبية هوبز، وجنونية نيتشه، فالحق بنظرهم هو القوة، والبقاء للأقوى. يشهد على ذلك ما خاضوه من حروب، وما أحدثوه من مجازر في حق الإنسانية، خاصة أثناء الحروب الصليبية ضد المسلمين، والحربين العالميتين اللذين راح ضحيتهما ما يربو على المائة مليون قتيل.

ويجب علينا أن لا ننسى دروس التاريخ فدروسه وعبره توضح لنا أن الشريط الوراثي لدى الحكومات الأوروبية، والصبغيات الحكومية الأوروبية صبغيات قائمة على المكر والخداع وغطرسة القوة. إن دروس التاريخ لا تزال قريبة منا جداً: لوزان - سايكس بيكو - بلفور - والنكبة والنكسة وحروب الخليج... الخ. إن الغرب لا يفهم إلا لغة القوة، ولا يحترم إلا الأقوياء، لذلك لا يمكننا أن نفرض احترامنا على الآخرين إلا إذا امتلكننا وسائل القوة والتمكّن والتأثير، وهو جوهر ما يأمرنا به ديننا، وتحثنا عليه عقيدتنا. وبغير القوة يكون الحديث عن التسامح

والسلام خرافة، إن القوة هي التي تصنع السلام والتسامح، وهي التي تحميه، والحق والعدالة بلا قوة كلمات ومفاهيم بلا مصداقيات، مجرد أو هام وأحلام¹⁷.

وفي هذا المبحث سوف أتناول أخلاق القوة في المفهوم الغربي، وقد قسمته إلى ثلاث مطالب، ففي المطلب الأول، أناقش "أخلاق القوة في الفلسفة اليونانية"، وفي المطلب الثاني أستعرض "أخلاق القوة في الفلسفة الغربية الحديثة"، وفي المطلب الثالث، أناقش "أخلاق القوة في عصر الديمقراطية والعولمة"، والله الموفق، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

المطلب الأول: أخلاق القوة في الفلسفة اليونانية

إن الإنسان إذا لم يكن مؤمناً بالله ﷻ، وأخلص له العبادة، ورجا ثوابه، وخاف عقابه، فإنه يمكن أن يرتكب أي ذنب أو مخالفة دون إحساس بخوف أو حرج، ويبرر كل رغباته وأهوائه بالفلسفة أو بالعلم أو بالعقل أو حتى بالدين. وفي عالمنا اليوم يرى الإنسان الظلم والقهر والعدوان والاستعمار، وكلها أمور يرفضها الإنسان المؤمن الذي يعرف أن هناك بعث وحساب وجنة أو نار، فذلك كله نزوات وأطماع، وأهواء وغرائز انساق اندفع إليها الإنسان بسبب الأنانية والطمع والجشع المفرط، أو بسبب الكبر والتفرعن الذي يسيطر على تلك الأنفس المتمردة، أو هو طغيان وجبروت تملك من هؤلاء الأشخاص الذي لا يعرفون أي معنى للإنسانية.

فعالم اليوم الذي يوصف بأنه عالم متحضر يمسك بزمام العالم على المستوى المادي المشاهد والملموس، وهو الذي يتحكم بمصير الحياة البشرية، إذ نلاحظ أن العولمة التي تُطرح أو تُفرض على العالم اليوم ما هي إلا نتاج فلسفة نمت وترعرعت في ذلك الوسط من العالم، وإذا تأملنا في تاريخ هذه الفلسفة فإننا سنجد أنها تقوم غالباً على مبدأ الأخلاق النفعية، فليس هناك أي قيمة ذاتية للأخلاق وإنما تتبع قيمتها من مدى ما تحققه من أغراض على مستوى المادة أي الحياة المنظورة¹⁸.

17 أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص342، 343.
18 المرجع السابق، ص324.

ومن خلال هذا المطلب سوف نناقش بإيجاز تاريخ الأسس الفلسفية للأخلاق في الغرب منذ أقدم عصورها خاصة أخلاق القوة، وتأثير هذه الفلسفة على الواقع، وسوف أبدأ نقاشي بالحديث عن السوفسطائيين¹⁹ الذين أقاموا الأخلاق على ثلاثة أسس هي:

1. **القوة:** فالحق هو القوة، والقانون من اختراع الضعفاء ليخدعوا به الأقوياء.
2. **اللذة:** فالغاية الأساسية للأخلاق هي تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة.
3. **النسبية:** فكل ما تراه أنت حقاً فهو كذلك بالنسبة إليك، وكذلك كل ما أراه أنا فهو كما أراه²⁰.

وبذلك يكون السوفسطائيون قد لعبوا دوراً خطيراً في تدهور الأخلاق اليونانية، إذ كان تفسيرهم للأخلاق ضربة قاضية زلزلت قواعد الأخلاق، وجعلتها مسلك الضعفاء، وطريقاً لتحقيق اللذة، كما أن قولهم بالنسبية المطلقة – رغم أنه رفع من مستوى اليونان العلمي والثقافي إلا أنه لم يدفع الناس إلى التواضع، بل إنه دفع كل إنسان إلى أن يجعل من نفسه معياراً للحق والباطل والتقدم، بل معياراً للقانون الأخلاقي، كما أن تفسيرهم للأخلاق باللذة دفع من جديد دفعة أخرى نحو هدم الدعائم والمبادئ الأخلاقية اليونانية، فأصبحت الأخلاق وهماً وخرافة في هذا المجتمع²¹.

ثم جاء بعدهم أفلاطون فأقام الأخلاق على أربعة أسس:

1. **المعرفة:** وهي معرفة حسية ومعرفة عقلية. وتعد المعرفة العقلية هي أساس السعادة والأخلاق الفاضلة لديه²².
2. **الحاجة أو المنفعة:** وهي أساس الدولة عند أفلاطون، وكذلك عند معظم فلاسفة اليونان، إذ إن الأخلاق ضرورية من أجل استقامة الدولة، ولحاجة الناس بعضهم إلى بعض.

¹⁹ لفظ "سوفسطائي" كان يعني معلمي الحكمة، ولكنه تحول إلى معنى محط بالكرامة بعد أن قام النزاع بين الدين والفلسفة فهاجمهم أفلاطون ووجه إليهم تهمة السفسطة أي التفلسف بهدف المكاسب والمال.

²⁰ ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة: محمد بدران، (القاهرة: مكتبة الأسرة، د. ط، 2001م)، ج7، ص214، 216.

²¹ المرجع السابق، ج7، ص218، 219.

²² أحمد أمين، **قصة الفلسفة اليونانية**، ص174.

3. **القوة:** فلا مكان في جمهورية أفلاطون للضعفاء والمعوقين والمشوهين، وعلى الدولة أن تتخلص من هؤلاء لأنهم يشكلون عبئاً عليها.
4. **العنصرية:** لم يستطع فلاسفة اليونان التخلص من العنصرية، فأجازوا لليوناني أن يسترق أو يستعبد الأجناس الأخرى، بينما منعه من استرقاق اليوناني مثله، وكذلك أجازوا للدولة اليونانية أن تبيد وتدمر الدول الأجنبية الأخرى، بينما تترفق بالمقاطعات اليونانية المتحاربة معها، واليوناني لديهم ممزوج بالذهب، بينما بقية الأجناس ممزوجة إما بالنحاس أو بالفضة. فما تعريف العدالة عند أفلاطون؟ إن العدالة لديه هي: أن يملك الإنسان ويفعل ما هو ملكه. وعلى هذا فالحاكم له أن يتصرف بملكه كما يريد، والقوي له أن يفرض قوته وسيطرته وعنفوانه على الآخرين، وأن يسترقهم إذا تمكن من ذلك²³. إن أفلاطون يعتقد أن هناك أناساً ولدوا ليكونوا أرقاء، وأن الرقيق يستحق مصيره لأنه لا يصلح إلا له. وعند أرسطو بعض الشعوب أذكيا وتتنقصها الشجاعة، وبعضها شجاعان وينقصها الذكاء، أما اليونان فقط فهم الذين يجمعون بين الذكاء والشجاعة²⁴.
- وترى الباحثة أن فلاسفة اليونان بهذا الشكل قد تلاعبوا بالأخلاق، وأفسدوا قيمها، وفسروها بما يخدم مصالحهم، ويحقق ملذاتهم، ويضمن لهم التفوق والسيطرة، بل ويخدم أفكارهم العنصرية التي تفضل الشعب اليوناني، وتبيح له ما لا تبيحه لغيره من الشعوب الأخرى. وهي نظرة عنصرية قاصرة، كما أنها لا ترحم الضعفاء والمعاقين، بل تسعى للتخلص منهم في غير رحمة ولا إنسانية، وبذلك تدهورت الأخلاق في المجتمع اليوناني القديم، وأصبحت عملية نسبية يفسرها كل شخص على هواه، وبما يحقق مصالحه، ويشبع ملذاته²⁵.
- وتُختتم الفلسفة اليونانية بالشكّك الذين أعلنوا عجز العقل عن الوصول إلى اليقين، ولم تكن فلسفتهم سفسطة، كما كانت لدى أسلافهم السوفسطائيين، وإنما أعلنوا أن الشك هو المعتمد النهائي، بمعنى أن الشك لم يعد وسيلة، أو طريقاً للوصول بعد ذلك إلى اليقين، ولم يعد مرحلة مؤقتة ينتقل الإنسان بعدها إلى المبدأ الراجح، وإنما أصبح الشك هو نهاية العقل، ونهاية البحث

²³ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص325.

²⁴ أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، ص176.

²⁵ ول ديورانت، قصة الحضارة، ج8، ص4/174.

والمعرفة، ومن أبرز أساطين مدرسة الشك اليونانية: "بيرو"، (360 ق.م)، ومن مآثور قوله: "لست أدري، ولست أدري أنني لا أدري"، كما يعد كلٌّ من كارنيادس وإنيسيديموس من أشهر الشكاك في ذلك الوقت²⁶.

وهكذا تبدأ الفلسفة اليونانية بالسوفسطائيين الذين قالوا بأن الحق هو القوة، والقانون من اختراع الضعفاء ليخدعوا به الأقوياء، وأن الغاية الأساسية للأخلاق هي تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة، كما قالوا بالنسبية، فما يراه شخص حقاً، قد يراه آخر باطلاً، وبذلك ضاعت القيم الأخلاقية في مجتمعهم، فالقوة لديهم لا تعترف بالقانون والذي اخترعه الضعفاء في زعمهم ليخدعوا به الأقوياء. وتنتهي تلك الفلسفة بالشكاك الذي اتخذوا الشك غاية لا وسيلة توصل إلى اليقين أو الحق. فشتان ما بين القيم الأخلاقية الإلهية، وبين فلسفات وآراء بشرية عاجزة قاصرة، تتحكم فيها الأهواء، وتوجه لخدمة الملذات والشهوات.

المطلب الثاني: أخلاق القوة في الفلسفة الغربية الحديثة

فإذا تخطينا العصور الوسطى في أوروبا والمعروفة بعصور الظلام، وانتقلنا إلى عصور النهضة والتنوير والحداثة، لنحاول الوقوف على الأسس الفلسفية التي قامت عليها الأخلاق في أوروبا خلال تلك العصور، مع التركيز على أخلاق القوة لديهم، علماً بأن تلك الفلسفات هي التي نشأت الحضارة الحديثة في ظلها.

أخلاق القوة في فلسفة مكيافلي 1469-1527م:

1. الأخلاق المسيحية في نظر ميكيافلي أوهنت من عزيمة الإنسان، وأسلمت الدنيا لأهل الجراًة والعنف، لذا فقد وجه لها ضربة قوية، فهو يفضل الوثنية على المسيحية لأن الوثنية بنظره تمجد الصحة والجاه والقوة، وتضفي هيبة على القادة والأبطال، في حين يرى المسيحية تحث على التواضع والضعف. وهكذا بعد مرور ألف سنة من سيادة وسيطرة المسيحية التي رفعت شعار المحبة والتواضع حين قال المسيح عليه السلام:

²⁶ أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية. ص 306، 309.

"من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر"²⁷. يعود مكيافلي ليستعيد مبدأ السوفسطائيين والإغريق عموماً في تعميق أخلاق القوة²⁸.

2. **المبدأ الثاني للأخلاق عند مكيافلي هو أن الغاية تبرر الوسيلة**، لذلك يرى أنه يجب على الحاكم أن يكون مكرراً مكر الذئب، ضارياً ضراوة الأسد، غادراً غدر الثعلب، وأن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير؟، وأن يحسن استخدام مبدأ فرق تسد، من أجل المحافظة على سلطانه، ولكن عليه في الوقت نفسه أن يكون ماهراً في إخفاء صفاته المرذولة، بارعاً في الرياء وإظهار الصفات الحميدة، بل حتى التدين الشديد. وعليه أن يعلم أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية كالأعمال الشريرة، ولذلك إذا أراد الأمير أن يحافظ على سلطانه فعليه أن يرتكب بعض الشرور والآثام، أما الرجال البارزون في المستعمرات، فإما أن يستمالوا، وإما أن يبادوا²⁹. كما يدعو مكيافلي المستعمر إلى التخريب فهو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على المستعمرات تحت السيطرة، فمن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي عليه. وهو فقط ينصح المستعمرين أن تكون جرائمهم وإباداتهم بتخطيط وتدبير يمكّنهم من جني الفوائد مدة طويلة وإسكات الشعوب إلى أمد بعيد، وبالطبع هذا ما مارسه الاستعمار قديماً في الجزائر وليبيا ومصر وسورية، وهو ما تفعله اليوم أمريكا في العراق وأفغانستان³⁰.

وتتعجب الباحثة من تلك الفلسفات الهدامة التي لا تراعي أي دين أو أخلاق، ولا تحفظ للإنسان دمه وكرامته، وترسخ لفرض سيطرة وهيمنة الدول القوية على الدول الضعيفة، كما تسوغ للحكام ارتكاب المجازر ضد الشعوب الآمنة، طالما أن ذلك سوف يحقق مصالحهم، ويبقي لهم السيطرة والتحكم في تلك الشعوب الضعيفة المستعمرة، فالغاية تبرر الوسيلة كما تعلموا من فلسفة مكيافلي.

²⁷ إنجيل متى، 5/39.

²⁸ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص327.

²⁹ مكيافلي، الأمير، ص2، نقلاً عن: أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص327، 328.

³⁰ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص328.

والملاحظ أن الطغاة والجبابرة اعتنوا بقراءة كتاب مكيافلي واحتفظوا به، وتعلموا عليه، فقد كان موضوعاً لرسالة الدكتوراه لموسوليني، وكان هتلر يضع هذا الكتاب بالقرب من سريره، ويقرأ فيه كل يوم قبل أن ينام، وكذلك فإن كلاً من لينين وستالين تتلمذاً عليه، أما الحكام العرب فيشرفهم أنهم تلاميذ مخلصون ونجباء ومتفوقون في مدرسة أستاذهم مكيافلي³¹.

وتعتقد الباحثة أن المتأمل في السياسة العالمية في وقتنا الحاضر، تبدو له أنها محكومة بالأخلاق المكيافلية التي تزيد القوي قوة والضعيف ضعفاً، وتبرر للحكام والأقوياء ما يقومون به من سياسات وتصرفات غير إنسانية، طالما أنها تخدم مصالحهم.

أخلاق القوة في فلسفة توماس هوبز 1588-1679م:

إن الأخلاق الثعلبية المكيافلية اكتملت بعد مرور قرن من وفاته إذ أزرتها ذنبية توماس هوبز 1588-1679م، فإذا كان مكيافلي قد اجتر من الفلسفة اليونانية أخلاق القوة السوفسطائية، وأضاف إليها "أن الغاية تبرر الوسيلة"، فإن توماس هوبز قرر أن يجتر من الفلسفة اليونانية الأخلاق الأبيقورية القائمة على مبدأ اللذة، وأضاف إليها سيكولوجيا الأنانية، وتناول ذلك تحت عنوان الذنبية الإنسانية، فعد الإنسان ذنباً لأخيه الإنسان، فإن لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب، فالأخلاق يجب أن تقوم على المادة والمنفعة وأخلاق السوق³².

أخلاق القوة في فلسفة فريدريك نيتشه 1844 - 1900م:

يعد فريدريك نيتشه 1844 - 1900م أبرز ممثل لأخلاق القوة في الفلسفة الغربية الحديثة؛ فهو الذي اجتمع لديه كل التراث الفلسفي السابق عليه، والذي يحض على القوة ويدعو إليها، فضلاً عن تأثره الشديد بنظرية داروين في الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأقوى، فطرح نيتشه مبدأ الإنسان الأرقى أو الأقوى أو المتفوق، واستوحى ذلك من فلسفة زرادشت، واستعان بعلم الأحياء الدارويني، وأعجب جداً ببسمارك ونابليون³³.

³¹ المرجع السابق، ص328.

³² إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، ص261، 300، 304.

³³ نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، (الإسكندرية: مطبعة جريدة البصير، د.ط، 1938م)، ص240، 241.

ويعد نيتشه صاحب الإعلان الشهير عن موت الله \llcorner ، لأن وجود الله \llcorner بنظره يحول دون تأكيد الإنسان لذاته، ولذلك كان يقول: "لو كان هناك إله فكيف أطيق أن لا أكون إلهاً"³⁴. لقد سخر نيتشه من الضعفاء والفقراء الذين يحسبون أنهم صالحون، لأنهم لا يملكون مخالف لينشبوها في أعناق الآخرين، وحارب كسلفه مكياقلي المسيحية لأنها تحض على أخلاق الرقيق، وأخلاق العبيد كالحب والتسامح والغفران والتواضع، "ما يمنع مسيحيي اليوم من أن يحرقونا ليس هو الحب، بل لأن هذا الحب لا حول له ولا قوة"، وقال عن العهد الجديد: إنه إنجيل إنسان من نوع وضع، كان مثله الأعلى في الحياة الإنسان المتحجر القلب، المتجرد من العواطف، الذي لا يعرف الشفقة أو الرحمة. وكان يرغب بالقضاء على الملايين من الضعفاء والفقراء والمعوقين، لأنه لا يؤمن إلا بالبطل، وبأخلاق القوة، كما كان أفلاطون يحلم في جمهوريته المثالية³⁵.

فمن وجهة نظر نيتشه حفنة من القوة خير من كيس من الحق، وإن الضعفاء الذين يسمون عدم الأمانة خيانة وعاراً، والقوة ظلماً، يعبرون بذلك عن عجزهم وضعفهم وهوانهم، وإن من يريد الحياة يجب أن يسمح لرغباته بالانطلاق إلى أبعد مدى، أما الأمانة والعدالة والوفاء فليست من أخلاق الرجال الأبطال، وإنما من أخلاق العبيد³⁶.

ولست أدري أي فلسفة تلك؟!، وأي أخلاق تلك التي لا تراعي الأمانة والعدالة والوفاء؟!، بل ترى ذلك كله ضعف وهوان يعبر به الضعفاء عن عجزهم، وأن الالتزام بتلك الأخلاقيات الطيبة ليس من صفات الرجال، بل من صفات العبيد وحدهم. وهنا يجب علينا أن نفخر ونعتز كثيراً بتاريخنا العربي والإسلامي المشرف، وحضارتنا الإسلامية العريقة التي لا تتخلى عن العدل والأمانة والوفاء بالعهود مهما كان الحال، في سلم وحرب، في غنى وفقر.

فالقوة إذاً هي الفضيلة الأساسية في رأي نيتشه، والضعف في رأيه هو النقيصة الوحيدة، وأن الحكم الفصل في جميع الخلافات ومصائر الأمور هو القوة لا العدالة، وهكذا كان بسمارك

³⁴ المرجع السابق، ص40.

³⁵ المرجع السابق، ص130، 40، 99، 101.

³⁶ ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، (بيروت: مكتبة المعارف، ط6، د.ت)، ص40.

يقول: "إنه لا محبة للغير بين الأمم، وإن قضايا الدول الحديثة لا ينبغي أن تقررها أصوات الناخبين ولا الخطب البليغة، وإنما الدم والحديد"³⁷.
لقد كان بسمارك بذلك رمزاً لهذه الأخلاق النيتشوية، فإذا كان نيتشة هو فيلسوف القوة، فإن بسمارك كان سياسي القوة.

إن نيتشه يعتقد أن الآلهة جميعها قد ماتت، لتفسح المجال للإله الجديد السوبرمان، أي الإنسان الأعلى. فقد كتب نيتشة كتابين أحدهما "ما وراء الخير والشر"، والثاني "تاريخ تسلسل الأخلاق"، وكان يرجو في هذين الكتابين تدمير الأخلاق القديمة القائمة على المحبة والصدق والتواضع لتحل محلها أخلاق الإنسان الأعلى، الإنسان المتأله المتفرعن المتغطرس الذي لا يؤمن إلا بالقوة والبطش³⁸. ومن هنا نفسر إعجاب نيتشة الشديد بنابليون الذي تسبب في قتل الملايين من الرجال، "يا له من منظر رائع عندما قدم الملايين من الأوربيين أنفسهم بنابليون من أجل تحقيق أهدافه، لقد ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر له، وراحوا يتغنون باسمه وهم يسقطون في ميدان المعركة"³⁹ ويرد على المهاجمين لسياسة نابليون فيقول: "لم يكن نابليون جزاراً، بل كان محسناً نافعاً، لأنه قدم للناس موتاً عسكرياً شريفاً، لأن الحرب أفضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان والخسة"⁴⁰.

والم تأمل في فلسفة نيتشه يجد أنه ليس فيلسوف القوة فحسب، بل فيلسوف العنصرية أيضاً، فقد كان يؤسس للعنصرية الألمانية التي تبناها فيما بعد هتلر، ليكوي العالم بناورها، كما تكويه اليوم أمريكا. فرأى نيتشه أن أخلاق السادة هي أخلاق رومانية، وأما أخلاق الضمير والشفقة فهي أخلاق سامية، وأن الشعب الألماني يمتاز بطبيعة رزينة وعمق يبعث على الأمل في أن تنهض ألمانيا يوماً لتخليص العالم. إن ما يوجد في الشعب الألماني من فضائل الرجولة يفوق ما هو موجود في بقية الشعوب⁴¹.

37 المرجع السابق، ص 506.

38 نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص 166.

39 ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص 535.

40 المرجع السابق، ص 545.

41 المرجع السابق، ص 526، 538.

ولعلنا نتساءل الآن عن مصير نيتشه الذي أسكرته العظمة، وافترى حين صرخ بملء صوته في العالم مات الله ﴿١﴾: لقد قال نيتشه ثملاً بأن المستقبل سوف يقسم الماضي إلى ما قبل نيتشه، وما بعد نيتشه، ولكن ما الذي حصل؟

لقد نال جزاء من يتمرد على كينونته وهويته، ويرفض خلعة الباري ﴿٢﴾، فقد عاش نيتشه الفترة الأخيرة من حياته مجنوناً، وألعبه بأيدي الصبيان، فقد كان يرفض الضعف، فأصبح الآن ضعيفاً، وكان يرفض الشفقة فأصبح مثاراً للشفقة. وكان يحلم بإبادة الضعفاء والمعوقين والمجانين، وقد كانت نهايته ضعيفاً مجنوناً يعيش في المارستان، فما أعظم حكمة الله ﴿٣﴾، وما أعدل رحمته ﴿٤﴾.

وهكذا رأينا من خلال استعراضنا للفلسفات السابقة أن أسس الأخلاق الرئيسية عند الغرب أربعة هي: القوة، اللذة، العنصرية، والحاجة. وأن هذه الأسس موافقة لأصناف الفلسفة عند اليونان، وفي أوربا. فقد رأينا فرويد يسير شوطاً أبعد بفلسفة اللذة فيعد اللذة المقصودة هي اللذة الجنسية، في حين كانت تشمل كل أنواع اللذة، مثل لذة العظمة، ولذة الواجب، أما فرويد فقرر أن الموجه للسلوك الإنساني هو اللذة الجنسية، وإذا علمنا أنه يعد الناس أشراً بطباعهم، فإننا ندرك السر في الإباحية العابثة التي تشيع اليوم في المجتمعات الغربية⁴².

وأما فلسفة القوة والحاجة فإن الفلاسفة النفعيين أمثال وليم جيمس، وجون ديوى قد تقدموا بها شوطاً آخر حين أضافوا إليهما فلسفة المنفعة "البراجماتزم"، وقالوا: إن المقياس الأول والأخير للأخلاق هو المصلحة والمنفعة الشخصية⁴³.

فإذا نظرنا إلى الفلسفة العنصرية في الفكر الغربي، نجد أن رينان قد خصصها أكثر، وصبغها بصبغة علمية، وألبسها مسوحاً أكاديمياً حين قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآري في التفكير، وخصص أكثر حتى يستثني اليهود أبناء عمومتنا حين قرر أنه من العبث أن نتلمس لدى العرب آراء علمية أو دروساً فلسفية خصوصاً أن الإسلام قد ضيق آفاقهم، وانتزع من بينهم كل بحث نظري، وأضحى الطفل المسلم يحتقر العلم والفلسفة⁴⁴.

42 أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص331.

43 المرجع السابق، ص331.

44 إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق، ص16.

إن الفرق كبير، والبون شاسع بين أخلاق القوة في الفكر الإسلامي، وأخلاق القوة في الفكر الغربي، فالأولى ترحم الضعيف والصغير، وتحترم الكبير، وترحم الإنسان، وتحترم إنسانيته، لا تدعو إلى القتل، ولا التعذيب، بل تعترف بالأخوة الإنسانية، ولا تفرق بين غني وفقير، ولا أبيض وأسود، فالكل في حق الحياة سواء. بينما أخلاق القوة في الفكر الغربي تقوم على عدة عناصر هي (القوة، اللذة، العنصرية، والحاجة)، فالقوي يأكل الضعيف، ويخضعه لخدمته سواء أكان فرداً أو دولة. واللذة هي التي تحرك الإنسان وتدفعه إلى إشباعها، وقد اختصرها بعضهم اللذة الجنسية، كما دعوا إلى العنصرية وتفضيل الجنس الآري على الجنس السامي، بل ومن بين أفراد الجنس الآري فضلوا الجنس الألماني، وكلها أفكار وفلسفات بشرية قاصرة، كان ضررها أكبر بكثير من نفعها.

المطلب الثالث: أخلاق القوة في عصر الديمقراطية والعولمة

في العصر الحديث -عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان والعولمة- لم يتغير الوضع كثيراً عما كان عليه في فلسفة العصور السابقة، حيث نرى فرنسيس فوكوياما، وصموئيل هنتغتون قد تقدموا بفلسفة العنصرية والقوة إلى أبعد مدى، حيث يوظفان الفلسفة والواقع العالمي الذي نعيشه اليوم لتأكيد غابية الحياة الإنسانية، ووحشية الإنسان وهمجيته. فلقارئ لكتاب فوكوياما يلمس بوضوح أنه يتحدث عن العالم دون حساب للحضارات والأمم الأخرى، وكأنها ليست موجودة، وإن وجدت فهي موجودة بمقدار ما تخدم العالم المتقدم يقول: "البداية التجريبية تشهد أنه منذ مائتي سنة لم تتصرف الديمقراطيات الليبرالية تجاه بعضها بشكل إمبريالي حتى لو كانت قادرة على محاربة الدول غير الديمقراطية"⁴⁵. ثم يقول: إن التاريخ قد انتهى؛ لأن الديمقراطية الليبرالية قد حلت بشكل نهائي مسألة الاعتراف: "السيد بالعبد"⁴⁶. ولا ريب أن المتأمل في الواقع العالمي الجديد لا يملك إلا أن يضحك من هذا الكلام، فقد خاض العالم حروباً دامية ذهب ضحيتها مئات الملايين بين الدول الديمقراطية وغيرها، كذلك فالديمقراطية التي سادت في الدول المتقدمة بعد الحرب

⁴⁵ فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فريق الترجمة: د. فؤاد شاهين، د. جميل قاسم، رضا الشايبى، الإشراف والمراجعة والتقديم: مطاع صفدي، (بيروت: مركز الإنماء القومي، د.ط، 1993م)، ص30.
⁴⁶ المرجع السابق، ص31.

العالمية الثانية كانت حكرًا على ذلك العالم القوي والمتقدم فقط، والذي لم يسمح للشعوب الفقيرة أن تنتقل إلى الديمقراطية؛ لأن ذلك يهدد مصالح الدول الكبرى، ولذلك ظلت هذه الدول داعمة للاستبداد والاستعباد والقهر والقمع بكل أشكاله في الدول الفقيرة، لكي تبقى هذه الشعوب مغلوبة مكبوتة منهوبة الثروات والطاقات، لتظل تابعة للدول الكبرى، وخاضعة لسيطرتها السياسية والاقتصادية.

وبذلك تظل القوة هي الفيصل في نظر فوكوياما بين العالم الديمقراطي والعالم غير الديمقراطي. ومن هنا، يدعو إلى منظمة تجمع الدول القوية فقط والليبرالية فقط! وهي التي تتولى حل المشكلات في العالم بالقوة، حتى ولو كان ذلك ضد رغبات الشعوب غير الديمقراطية ومصالحها، فهي شعوب ساذجة متخلفة فقيرة لا تدرك مصالحها⁴⁷.

والغريب أن هذه التقسيمات الفوكوية تستر بالفلسفة، وتجمع كثيراً من المتون الفلسفية القديمة والحديثة لتبرير هذا الفصل العنصري المذموم بين الشرق والغرب، بين عالمين أحدهما متحضر وآخر همجي، إنه سعي فلسفي حثيث لتبرير الإمبريالية والإبادة والإقصاء وإخراج معظم العالم من التصنيف البشري، وحصره في بقعة ما من كوكب الأرض، فهي نفس الأحكام الاعتبارية الكبرى التي شكلت عنف الأسطورة والأدلجة، وبررت مذابح الماضي وكوارث الإنسانية، وفي كل مرة تسمى انتصارها على الإنسانية انتصاراً للإنسانية، وكماً للتاريخ وإنهاء له. والواقع أن فوكوياما يصل إلى نتيجة مفادها أن أفلاطون وروسو وهيغل ونييتشه هم آباء حقيقيون لليبرالية المتوحشة المنفلتة والممثلة في تاتشر وريغان وبوش. وبهذا تمثل أطروحة فوكوياما تراجعاً خطيراً على صعيد، (المفهمة الحداثية، إلى أطروحة هوبز، وتشكل من جديد مرة أخرى انتصاراً لذنبية الإنسان⁴⁸).

إن فوكوياما بفلسفته العنصرية تلك يصل إلى تأسيس الفصل النهائي بين عالمين: عالم الإنسان الأبيض، والإنسان المتخلف، والعلاقة بينهما علاقة الإخضاع بالقوة، فالموعدون بجنة نهاية التاريخ هم القبيلة البيضاء والشقراء وربما الصفراء، أما الآخرون فلم يعد تصنيفهم في خانة المتخلفين يكفي للتعبير عن رحلة التصفية الأخيرة؛ لأن هذا سيظل يشكل عبئاً للإنسان

⁴⁷ المرجع السابق، ص 260، 263.

⁴⁸ أحمد إدريس الطعان، أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة)، ص 333.

الأبيض. المطلوب هو القطيعة المطلقة بين سكان الجحيم التاريخي المحكومين بمصيرهم، والنخبة الفائزة بالنعمة الخلاصية وحدها من دون العالمين!⁴⁹.

وهذه القطيعة، في نظر فلاسفة الغرب، لا بد منها، خاصة مع الشرق الإسلامي؛ "لأن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي وضعت استمرار الغرب في شك، وقد فعلت ذلك مرتين على الأقل، الاستيلاء على القسطنطينية 1453م، ومحاصرة فيينا عام 1529م، كما أن أسباب هذا النمط من الصراع لا يكمن في ظاهرة التحولات المسيحية في القرن الثاني عشر، أو أصولية القرن العشرين الإسلامية، بل إنها تنبع من طبيعة الديانتين والحضارات المؤسسة على مبادئهما"⁵⁰.

تلك هي الأسس الأخلاقية التي قامت عليها الفلسفة الغربية عبر التاريخ، وهي الأسس التي انتصرت وسادت، والتي تقوم على عدة عناصر هي: القوة، اللذة، المنفعة، العنصرية، فهل كان لهذه الأسس الفلسفية تأثير في الواقع العالمي بين أمس واليوم؟، والإجابة بالطبع نعم؛ فالأخلاق الأبيقورية والمكيافلية والنيتشوية هي التي جعلت بسمارك و نابليون لا يباليان بملايين الجنود الذين يموتون في سبيل تحقيق العظمة والجاه، وفي سبيل نشوة القوة، والشعور بالمجد والفخر، كما أن أخلاق المنفعة والقوة والعنصرية هي التي دفعت الاستعمار الأوروبي في القرون الماضية إلى احتلال بلادنا العربية، وغير العربية من الدول النامية، حتى ينهب خيراتها وثرواتها، وحتته على بناء أمجاده و ثرائه ورفاهيته وحضارته على حساب فقر دولنا، وامتصاص دماء أبنائها.⁵¹

إن فلسفة القوة تلك هي التي تسود في العالم في العصر الراهن، حيث يشاهد العالم كل يوم منظر الفلسطينيين وهم مكبلون مصفوفون على الجدران، أو جالسون على ركبهم، أو منبطحون على الأرض في ذلة وانكسار أمام المحتل الإسرائيلي، كما نراهم يُركلون بالأقدام،

⁴⁹ مطاع صفدي، مقدمة على كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير لفرانسيس فوكوياما"، منشورات مركز الإنماء القومي، ط1، 1993م).

⁵⁰ صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، نقله إلى العربية: د. مالك عبيد أبو شهيو، د. محمود محمد خلف، (ليبيا: الدار الجماهيرية، ط1، 1429هـ/1999م)، ص38 والكلام لبرنارد لويس ينقله عنه هينغتون.

⁵¹ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (القاهرة: دار الشروق، ط1، 1999م)، ج1، ص77.

وأيضاً يرى العالم كل يوم منظر الأشلاء المتناثرة، والجثث المتفحمة، وبقع الدم الحمراء، هذا المنظر هو مصدر متكرر يؤلم كل من يراه، فهو مصدر شقاء متواصل كل يوم بالنسبة للمسلمين، ومن في قلبه بقية من رحمة أو شفقة من رجال الغرب، ولكنه بالنسبة إلى شارون وبوش وتاتشر ونيته وهينغتون وفوكوياما وكل سياسيي القوة وفلاسفتها مصدر لذة وشعور بالنشوة والانتصار، رغم زيف هذا الإحساس.

أيضاً رأينا ورأى العالم أجمع منظر السجناء في سجن أبي غريب وهم عراة لا حول لهم ولا قوة، يحولهم العدو إلى أدوات بناء، أدوات للعب والعبث والتسلية، فيصنع منهم هراً بشرياً عارياً للتسلية، كأنهم دمي في أيديهم، أو عساكر (شطرنج) يحركونها كما يشاؤون، كما رأينا منظر تلك المرأة القبيحة التي تجردت من أنوثتها، عندما كانت تجر بحبل رجلاً عراقياً، كما يجرون كلابهم، ومنظرها كذلك وهي تعبت بأعضائه وهو عارٍ، كل ذلك مصدر ألم لكل إنسان فيه ذرة إنسانية، ولكنه بكل أسف- مصدر لذة وشعور بالمتعة والنشوة للإسرائيلي أو الأمريكي الذي تشبع بأخلاق العنصرية والكراهية، وفلسفة القوة الغاشمة التي لا تراعي ديناً ولا أخلاقاً ولا إنسانية، ولا مروءة.

بعد هذا الاستعراض الموجز لأخلاق القوة عند المسلمين أو في الفكر الإسلامي، وأخلاق القوة لدى الغرب، يتضح لنا الفارق الرهيب واليأس الشاسع بينهما، فشتان ما بين الثريا والثرى، أو بين النور والظلمات، أو بين الحق والباطل؛ فأخلاق القوة عند المسلمين أخلاق ربانية المصدر، تحترم الإنسان، وتحفظ له كرامته حتى في الحروب والمعارك، فقد نهى رسولنا الكريم **X** عن التمثيل بالقتلى في المعركة، كما نهى عن قتل الشيخ المسن، أو الطفل أو المرأة، هذا على سبيل المثال لا الحصر. بينما أخلاق القوة لدى الغرب لا تراعي في إنسان إلا ولا ذمة، فقد عُرف عنها عبر التاريخ المجازر الكثيرة ضد الإنسانية، والتي لم تفرق بين كبير وصغير، وبين رجل وامرأة، أو بين عسكري ومدني؛ فلنفخر بديننا وكتابنا وسنتنا المطهرة.

الخاتمة والنتائج:

بعد عرض الأقوال والآراء والنصوص السابقة، تستخلص الباحثة منها النتائج التالية:

- 1- يلتزم المسلمون بما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى، وفي أحاديث النبي الله عليه وسلم في تفسير معنى القوة.
- 2- اختلفت مشارب الفلاسفة في تناول قضايا أخلاق القوة، مما يعني أن هذا التضارب الظاهر غير المصدر الأخلاقي عند الفلاسفة، ذلك أن العقل كان منذ الفلسفة اليونانية وحتى الفلسفة الحديثة هو المصدر الذي تستمد منه الأخلاق.
- 3- نهى الإسلام عن التمثيل بالقتلى في المعركة، كما نهى عن قتل الشيخ المسن، أو الطفل أو المرأة، هذا على سبيل المثال لا الحصر. بينما أخلاق القوة لدى الغرب لا ترعى في إنسان إلا ولا ذمة، فقد عُرف عنها عبر التاريخ المجازر الكثيرة ضد الإنسانية، والتي لم تفرق بين كبير وصغير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
إنجيل متى.
إبراهيم مذكور. (1983م). في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق. القاهرة: المكتب المصري للطباعة والنشر. (د. ط.).

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي. 1422هـ). فتح الباري.
أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد (تحقيق). الدمام بالسعودية: دار ابن الجوزي.
(ط2).

أبو زهرة، محمد. (1991م). مقارنات الأديان. القاهرة: دار الفكر العربي. (د. ط).
أحمد إدريس الطعان. أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي (دراسة مقارنة). مجلة جامعة
دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية – المجلد 27 - العدد الثالث- 2011م.
أحمد أمين. (1935). قصة الفلسفة اليونانية. القاهرة: دار الكتب المصرية. (ط2).
إمام، عبد الفتاح إمام. (1985م). توماس هوبز فيلسوف العقلانية. القاهرة: دار الثقافة للنشر
والتوزيع. (ط2).

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (1414هـ/1994م). الصحيح. مكة المكرمة: جامعة أم
القرى. (د. ط).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر. (1423هـ/2003م). شعب الإيمان. د. عبد
العلي عبد الحميد حامد (تحقيق). الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع. (ط1).
دراز، محمد عبد الله. (1998م). دستور الأخلاق في القرآن. د. عبد الصبور شاهين (تحقيق).
بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط10).

ديورانت، ول. (2001م). قصة الحضارة. محمد بدران (ترجمة). القاهرة: مكتبة الأسرة. (د.
ط).

ديورانت، ول. (د. ت). قصة الفلسفة. د. فتح الله محمد المشعشع (ترجمة). بيروت: مكتبة
المعارف. (ط6).

الشرقاوي، محمد عبد الله. (1410هـ/1990م). الكنز المرصود في فضائح التلمود. القاهرة:
مكتبة الوعي الإسلامي. (د. ط).

صفدي، مطاع. (1993م). مقدمة على كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير لفرانسيس
فوكوياما". بيروت: منشورات مركز الإنماء القومي. (ط1).

صموئيل هنتغتون. (1429هـ/1999م). صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي. د. مالك
عبيد أبو شهيو، د. محمود محمد خلف (ترجمة). ليبيا: الدار الجماهيرية. (ط1).

- فرنسيس فوكوياما. (1993م). نهاية التاريخ والإنسان الأخير. د. فؤاد شاهين، د. جميل قاسم، رضا الشايبي (فريق الترجمة). بيروت: مركز الإنماء القومي. (ط1).
- مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. (د.ت). الصحيح. محمد فؤاد عبد الباقي (تحقيق). بيروت: دار إحياء التراث العربي. (د. ط).
- المسيري، عبد الوهاب. (1999م). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. القاهرة: دار الشروق. (ط1).
- نيتشه. (1938م). هكذا تكلم زرادشت. فليكس فارس (ترجمة). الإسكندرية: مطبعة جريدة البصير. (د. ط).